واقع النقد العربي الحديث و أزماته

د.سليمة مسعودي
جامعة باتنة 1 (الجزائر)

Résumé :

La critique arabe actuelle connaît une situation de crise profonde due essentiellement à l'aliénation de la pensée arabe et à sa soumission au modèle occidental en tant que références d'emprunt permettant de fonder sa présence au monde. Ceci est visible notamment dans une série de manifestations et d'expressionsqui sont apparues dans le paysage de la critique et se rapportant surtout à la problématique de la méthode, à la crise du concept et à l'absence de la fonction centrale de la critique, en l'occurrence, l'occultation des ressorts mystérieux des textes.Ceci conduit inévitablement à l'inadéquation entre les paramètres de la critique, du texte et du public. Il s'agit d'une pathologie à laquelle s'est trouvée confrontée la critique. Le critique lui-même s'est trouvé au cœur d'un affrontement entre différentes méthodes d'emprunt qui visent à imposer son hégémonie sur les différentes instances de la création littéraire (le contexte extérieur, le pouvoir de l'auteur, le pouvoir du texte, la voix du récepteur, etc.), sans parvenir pour autant à adopter une méthode capable de permettre un dialogue fécond des textes pour en découvrir les structures profondes, les visées esthétiques. Ajoutons à cela l'étrangeté des concepts et son incapacité à accomplir sa fonction de méta critique. Ceci pose avec acuité la nécessité de penser à réaliser une sorte de symbiose entre la spécificité culturelle arabe dans son rapport avec l'héritage civilisationnel arabe et l'apport critique et culturel occidental pour dépasser cette crise et promouvoir des perspectives critiques prometteuses.

الملخص :

يشهد الواقع النقدي العربي وضعا مأزوما، يعود إلى استلابية الذهنية العربية، واعتمادها على النموذج الغربي كمرجعيات مستعارة، تؤسس عليها وجودها، وترسي أنطولوجيا حضورها. وقد تجلى هذا الاستلاب في جملة من التمظهرات على الساحة النقدية، أبرزها إشكالية المنهج وأزمة المصطلح وتغييب الوظيفة المركزية للنقد، من حيث عدم الإفصاح عن أسرار النصوص، ما دعا إلى الفصام بين النقد والنص والجمهور، إذ وجد النقد نفسه يعاني حالة مرضية، ووجد الناقد نفسه في خضم جملة من المناهج المستعارة التي تتناوش أطراف العمل الأدبي (السياقات الخارجية وسطوة المؤلف، سلطة النص، صوت المتلقي)، دون أن يصل إلى منهج يحسن عبره محاورة النصوص، واكتشاف مضمراتها، وتجلية جمالياتها، إضافة إلى غربة المصطلحات المترجمة وقصورها عن تأدية وظيفتها كلغة نقدية .وهذا ما دفع إلى ضرورة التفكير في الجمع بين خصوصيات الثقافة العربية وجذورها النقدية، وطبيعة نصوصها الأدبية ومناخاتها الحضارية، وبين الاستفادة من النموذج الغربي من أجل واقع نقدي أفضل.

تضاريس الواقع النقدي العربي

تقوم العملية الأدبية على ثنائية متكاملة، تتمثل في الجهد الإبداعي والجهد النقدي، لايمكن للأول أن يستغني عن الثاني، ولا يمكن للثاني أن يحقق وجوده بمنأى عن الأول . فالعلاقة بين الإبداع الأدبي شعرا وسردا، وبين النقد علاقة تلازمية في الحضور، يحتاج فيه كل طرف إلى الآخر ويستدعيه، ويعتمد عليه في تحقيق كينونته وشرطه الحضاري ؛فلا يمكن للإبداع أن يحيا إلا اعتمادا على متلق يتلقفه، ويحاوره، ويقاربه، ويستبطن أغواره، ويستكشف أبعاده الإنسانية المختلفة، ولا يمكن للنقد أن ينهض إلا على وجود إبداع أدبي يمارس عليه وظيفته التي وجد لأجلها.

في ضوء هذه الثنائية كانت للنقد أهمية قصوى في الوجود الأدبي والثقافي للأمم، باعتباره عملية عقلانية ذوقية في مقاربة الأعمال الفنية واستقصاء الأجواء الثقافية وفق منطق التذوق والاستقراء والتحليل والدراسة، من أجل إدراك الأنساق التي اتخذتها الثقافة والفكر والأدب كتمظهرات حضارية تمثل أنساق كينونة وأنطولوجيا وجود، عبر مختلف المراحل والحقب التاريخية، واكتشاف البنى الداخلية التي تحكمها، وتجمع بين الأطر المختلفة، إذ يشكل النقد جانبا ضروريا وحيا داخل النسق الثقافي العام، به يقاس مدى صحة تفكير الأقوام، ونضج وعيها، وسلامة أذواقها، ورقي فنونها المختلفة.

وإذا كانت طفولة النقد القديم قائمة على الانطباعية والحدس والذوق الفطري، وهو ما يدفع إلى إصدار الأحكام الارتجالية التقييمية للنصوص، في ضوء علاقة التأثر والتأثير بين المتلقي والنص، فإن النقاد في مراحل لاحقة قد استطاعوا التخلص من ذلك باعتماد العلوم المختلفة على رأسها البلاغة والمنطق وعلم الكلام والعلوم اللغوية المختلفة، فارتحلوا بالنقد من الحكم الذوقي على النصوص نحو التنظير لقواعد الإبداع الشعري وفرض المعايير النمطية عبر تقديس النموذج الشعري القديم والدعوة إلى اتباعه، وهو ما أفضى إلى الصراع بين الشعراء (المحدثين) والنقاد (دعاة القدامة والاتباع)لكن ذلك كان بشكل أو بآخر مدعاة لتطور الكثير من المفاهيم والنظريات النقدية؛فشهد النقد مرحلة من النضج استطاعت أن تنتجب جملة من القيم النقدية الأصيلة.

وإذا كان الإبداع ينبثق من حيوات الأمم وخصوصياتها، وينهض على ظروفها وسياقاتها وأبنيتها الروحية والاجتماعية والتاريخية، فإن النقد يشكل مجموع خبراتها وملتقى ثقافاتها ومعارفها، وهو ما أدى إلى استفادة النقد العربي القديم من نظرية المحاكاة والمنطق الأرسطي وعلوم الأقوام الأخرى، دون التجرد من الهوية العربية وخصوصيات الإبداعالعربي التي تتصل بطبيعة الذات العربية وبيئتها، ودون التخلي عن العقل النقدي البناء الذي يحسن الاستفادة من جهود الآخر وتطويعها لخدمة جهوده النقدية الخاصة .ففي مجال النقد ـــــــ كأي مجال فكري آخر، يلتقي بعد المشترك الإنساني بالأبعاد القومية والذاتية للآداب التقاء حميميا، ينفي كل تصادم وصراع، بل يخلق توليفة أكثر إنسانية وجمالا .

لقد مرالنقد العربي الحديث ومنذ عصر النهضة بالكثير من الاضطرابات والتحولاتوالتغيرات ؛على مستوى الطبيعة والوظيفة والأداة والغاية، فشهد مرحلة معاناة إشكاليات مصيرية في وجوده، إشكاليات خلفت زخما من التوجهات والتنظيرات والأنماط التطبيقية المختلفة، وأثارت الكثير من السجال والجدل والصراع، بحثا عن توطين أصول نقدية تكون قادرة على مواكبة الواقع الحضاري من جهة، وقادرة على محاورة الأعمال الإبداعية بأنواعها وتطوراتها، في ظل انفتاح الآداب على عالمية التفكير وازدهار الطباعة وتطور تكنولوجياتها، مما أفضى إلى مد هائل

من النصوص الأدبية، وتطور في الأجناس المألوفة، وظهور أجناس أدبية جديدة، وتلاقح بين الفنون المختلفة، وثورة في المضامين، وازدهار في الأشكال الجمالية، وتوسع في المساحات الثقافية داخل النصوص، وأدى كل هذا إلى تسارع مد هذه التحولات وسيطرة الفوضى واضطراب الفكر وضبابية الرؤية .

وليست الممارسة النقدية موقفا من الحركة الأدبية وحسب، بل تشكل موقفا من الحياة والواقع بمجالاته المختلفة، وهذا ما جعل النقد وثيق الصلة بفلسفة العصر، باعتباره صورة عن الوعي الحضاري الذي تعيشه المجتمعات، وجزءا من البنية الثقافية العامة، ولذا فإن ما يعانيه النقد الحديثمن أزمات، هو في الحقيقة واجهة وامتداد لمشكلات الفكر العربي في بداية النهضة، بما ساده من انهزامية الذهنية العربيةوتشتتها في فضاء ثنائية التراث/ثقافة الآخر، بحثا عن أطر للتفكير ومواكبة العصر، بفعل سياسة النسخ والتقليد التي مارستها تجاه ما توارثته من جهود الأسلاف من جهة، ،وتجاه ما استوردته من عناصر الثقافة الغربية من جهة أخرى، ما دفع الدكتور غالي شكري : " إن الثنائية الساكنة لفكر النهضة (التراث والغرب) وما ترتب عنها من تجاوز مستمر للنهضة والسقوط، هي أصل الأصول في تعويق النقد كفكر حضاري عن الوصول "[1]

وازداد الطين بلة مع رواج النظريات والمناهج الغربية في الواجهة النقدية للواقع العربي، رغم محاولات أقلمتها مع المناخ وطبيعة الظروف العربية . وما كان الأمر على درجة كبيرة من الخطورة لو كان التعامل مع هذه النظريات والمناهج لا يتعدى التأثر والتوظيف العقلاني الواعي، لكن القضية تحولت إلى أزمة أفرزت بدورها مجموعة من الإشكاليات، لأن صيغة التعامل خرجت من مجرد التأثرإلى النقل السلبي الذي يكاد يكون نقلا حرفيا لما جاءت به هذه النظريات، وإرغام الواقع الثقافي العربي على تقبلها، دون أن يمتلك من مكوناته عناصر قابلية لها،أو يؤهل نفسه لاستقبالها، فإذا كانت هذه النظريات والمناهج انعكاسا طبيعيا للإطار الحضاري الذي نشأت فيه، وحققت جودها في مناخه، فلا شك أنها ستبوء بالفشل، وتجابه بعدم القبول في إطار حضاري مغاير، خصوصا وأن ناقليها لم يتعاملوا معها بالعقلانية المطلوبة والنقد والتمحيص،بل وظفوها كمقولات جاهزة، وقاموا بإسقاطها على النصوص،وموضعوها كنماذج عليا غير قابلة للنقد والتقييم والمساءلة والبحث .

وأفرز التعامل مع المناهج الغربية بمنطق الاستلاب ظاهرة أخرى لا تقل خطورة عن سابقتها تتمثل في اللجوء إلى التنظير على حساب التطبيق، إذ وجد النقد نفسه يعيد صياغة النظريات الغربية، بغية إعطائهامشروعية الحياة في البيئة العربية وبل تحول من محاورة النصوص الإبداعية إلى الدفاع عن وجوده، وهو ما أفضى إلى أزمة أشد خطورة هي القطيعة بين الحركة الأدبية والحركة النقدية فغيبت الوظيفة المركزية التي تأسس النقد لأجلها، وهذا ما دعا الناقد شكري عياد إلى القول : " الأصل في أية حركة نقدية أن تكون مراقبة لإبداع أدبي، والغالب الآن على النقد الأدبي الذي ينشر أنه نقد نظري، بينما التطبيقات الإبداعية قليلة جدا ."[2]فالنقد أصبح موضوعا للنقد نفسه، حتى ظهر ما يعرف "بنقد النقد"، إذ يفهم من هذا المصطلح :"أن النقد ابتعد عن موضوعه وهو الأعمال الأدبية الإنشائية، ليستمد أسباب حياته من داخله "[3]

---

[1] ـــ غالي شكري : برج بابل ـــ النقد والحداثة الشريدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1994، ص71

[2] ـــــ جهاد فاضل :أسئلة النقد، الدار العربية للكتاب، د، ط، د.ت، ص 168 .

[3] ـــ جهاد فاضل :المرجع نفسه، ص172 .

ولا يمكننا الحديث عن واقع النقد دون الحديث عما يعانيه من أزمة على صعيد المصطلحات، كنتيجة حتمية لترجمة النظريات الغربية، مما أفقد النقد قدرته على التواصل مع المتلقين.

إن طبيعة التفكير النقدي أنه تفكير استشكالي استكشافي متأمل متسائل، لا يقبل الأمور على عواهنها، بقدر ما يحللها ويمحصها، ويبحث في علاتها، ويستخلص نتائجها، وهذا ما لم يستوعبه العقل العربي الذي كان عقلا استقباليا استهلاكيا، استورد المناهج الغربية كما يستورد لوازم الحياة المادية، وراح يطبقها بقسرية وتعسفية على الأعمال الأدبية، لاويا أعناق النصوص لتستجيب لها، فكان ذلك سببا في خلق هوة عظيمة بين الناقد والنص والمتلقي .

أن أهم أزمة يعانيها النقد العربي هي افتقاد مشروع يتكئ على رؤية نقدية عربية، ونظريات تكون نتيجة الواقع الإبداعي العربي، حتى وإن اكتسبت بعض مؤهلاتها من محاورة النقد الغربي وقراءته باستبصار ووعي، علما أن ما يعانيه النقد جزء لا يتجزأ من أزمة حضارية حادة، نعيش تمظهراتها في أهم تمفصلات الوعي العربي(مناهج التعليم، مناهج البحث)ما أدى إلى خلل كبير في بنية العقل العربي ومنظومة تفكيره من حيث الافتقار إلى روح الإبداع والاستقصاء والإنتاج .

إشكالية المنهج في التفكير النقدي العربي :

تشكل الممارسة النقدية تفاعلا خلاقا بين منطلقات الناقد الفكرية والمنهج الذي يتبناه في مقاربة النصوص، من أجل اكتشاف عوالمها وافتضاض أسرارها والوقوف على مكوناتها الروحية والجمالية . فكل عملية نقدية تعد قراءة واعية وذوقية (بالمفهوم الصوفي للمصطلح)، إذ :" تقوم أية قراءة بوصفها فعالية منشطة للنصوص الأدبية على ركيزتين أساسيتين هما: الرؤية التي يصدر عنها الناقد، والمنهج الذي يتبناه لتحقيق الأهداف التي يتوخاها من قراءته، فالرؤية هي خلاصة الفهم الشامل للفعالية الإبداعية .أما المنهج فسلسلة العمليات المنظمة التي يهتدي لها الناقد وهو يباشر وص النصوص الأدبية وتنشيطها واستنطاقها ."[1]فكل فاعلية نقدية تمثل تفاعل روح الناقد ومكوناته الثقافية وحسه الجمالي بروح النص، وما يحويه من أبعاد فكرية وروحية وتمظهرات فنية، عبر احتذاء طرائق وأدوات إجرائية معينة، وهذا ما يفرض علينا طرح السؤال الآتي :هل النص الأدبي هو الذي يستدعي المنهج الذي يقاربه، ويفرض اتجاها قرائيا بعينه ؟أم أن المنهج سابق على النص، يأتي ليفرض عليه حضوره واشتراطاته، ويقيسه بمقاييسه الخاصة؟

إن المنهج النقدي هو التحام الرؤية الفلسفية بالذوق الجمالي والخبرات المعرفية للناقد، والتي تستلزم أدوات إجرائية وجهازا مفاهيميا خاصا، ومن خلال ذلك يعقد الناقد صلة فنية وروحية بينه وبين عالم النص رؤية وتشكيلا .وينبثق كل منهج من طبيعة الأسئلة التي يثيرها النص،ليكون استراتيجية في الإجابة عن هذه الأسئلة، في ضوء المكتسبات الثقافية والخبرات المعرفية التي يمتلكها الناقد، والسياق الحضاريالذي يعيشه كل من النص الأدبي والناقد على السواء،و الإيديولوجيا التي يتبناها كل منهما .

والمنهج النقدي يبحث في شتى القضايا والظواهر الأدبية التي تتصل بمختلف الأجناس والفنون .حيث يسعى كل منهج للإجابة عن مختلف التساؤلات التي ينطلق منها في معالجة الظواهر والنصوص المستهدفة . ومن أبرز أبجديات السؤال النقدي الاهتمام بمختلف الوظائف الإنسانيةوالجمالية التي يحققها الأدب، والبحث عن القوانين الداخلية التي تحكم

1ـــــ عبد الله إبراهيم :الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، الدار العربية ناشرون، بيروت، ط1، 2010، ص58.

الظواهر والأجناس الأدبية على اختلافها . وهذا ما يجب أن يأخذه المنهج على كاهله، ويضطلع بتأديته كهدف منوط بوجوده .وعليه يسعى كل منهج لتزويد ذاته بآليات إجرائية ومنطلقات فكرية وفلسفية عميقة وأهداف متوخاة وجهاز مفاهيمي يتكفل بضبط المفاهيم والتصورات .

وإذا كان الدور الأول والأساس الذي يتكفل المنهج النقدي بأدائه هو بث روح النقد والمساءلة والبحث في مختلف تمفصلات الوعي الإنساني، وتحفيز موهبة الحساسية الفنية، والارتقاء بالذوق العام، فلا شك أن لديه دورا مركزيا في بناء الثقافة، وتطور الفكر وإنتاج المعرفة، وتحديد ملامح ومفاتيح توبولوجيا المشهد النقدي العربي المعاصر، وقبل هذا وذاك إعادة الصلة بين النص والمتلقي، باعتبار الناقد قارئا محترفا يمتلك ذائقة مدربة ووعيا يقظا تجاه الفن والإبداع.

وتعد إشكالية المنهج الذي يمارس به الناقد اشتغاله على النص أهم أزمة عاشها النقد الحديث ومازال يعيشها، باعتبار العملية النقدية عملية معقدة، تجمع بين الروح العلمية واشتراطاتها: الموضوعية، تحري الدقة، التفكير المنطقي الممنهج والأخذ بالأسباب والعلل، وبين روح الفن المعتمد على الذائقة والذاتية والمقاربة الشعورية الروحية لعالم النص، من أجل استشعار مواطن الجمال روحا وشكلا، فكان لزاما على النقد أن تجمع مناهجه بين الطبيعة العلمية والطبيعة الفنية، وهو ما افتقد في المناهج الحديثة، فأسفر ذلك عن شرخ كبير بينها وبين النصوص بفعل انصياعها وراء النظريات العلمية للعلوم الإنسانية والمادية على حد سواء، دون مراعاة لخصوصية النقد كعلم يتخذ الفنموضوعا له : "و النقد الأدبي لم يكن بعيدا عن اصطراع هذه النظريات العلمية وتمثلها والإفادة منها، بالقدر الذي لايفسد عليه حقله، وهو حقل فيه للفكرنصيب، وفيه الجمال نصيب، ووفيه للفن والإبداع نصيب أكبر ."[1]

وإذا كانت المناهج العلمية الدقيقة تصلح إلى حد كبير مع العلوم التجريبية، فإن تطبيق منهج بعينه على الأدب لهو أمر من الاستحالة بمكان، نظرا لثراء النصوص بالمكونات الثقافية والجوانب الإنسانية ذات الطابع البعيد عن التحديد، وتعالقها بشتى المعارف والفنون، علما أن لكل عمل أدبي طابعا خاصا يفرض تغليب منهج دون آخر، مع عدم إقصاء بقية المناهج، وهذا ما يؤكد ضرورة تضافر المناهج المختلفة وتكاملها لخدمة النصوص والرقي بالبعد الثقافي للمجتمعات .

وإذا كان المنهج يمثل احتذاء طريقة معينة في التفكير، تسعى لتتبع الظاهرة، وتستقصي أسبابها، وتفحص تمظهراتها، وتستنتج نتائجها، فإن المناهج النقدية ليست طرائق آلية، بل يجب أن تضمر جانبا إنسانيا ورؤية كونية وبعدا سوسيوثقافيا وإيديولوجيا معينا، فالمناهج طرق، وليست قوانين صارمة ومعايير ثابتة ودقيقة، وعليه يجب أن تتسم بالمرونة، وتخرج عن الأطر الضيقة، لتكون مطواعة لعالم النص، منفتحة على تعدد أبعاده .وهذا مايفضي إلى ضرورة التداخل بينها . فكثيرة هي مساحات التوافق بين المناهج المختلفة، بينما يعود الاختلاف إلى المنطلقات الفسلفية والأرضياتالمعرفية التي ينطلق منها كل منهج، وهذا الاختلاف ليس صراع من أجل البقاء والهيمنة على جغرافية النص بل هو التكامل بين الرؤى، والثراء في تعدد وجهات النظر النقدية ؛ يقول الدكتور صلاح فضل :"إن هناك قدرا من التداخل بين المناهج المختلفة، لأن الفواصل التي تعزلها ليست قاطعة أو حاسمة، لكن هذا التداخل لا يؤدي عند النظر الصحيح إلى الاختلاط أو التشويش، فهناك مناطق مشتركة تتعد لبها المناهج طبقا لكشوفها المتوالية، إلى جانب هذا

---

[1] ـــ بسام قطوس :المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2006 .ص12 .

التداخل أن هناك حالات من التخارج والتباين، وهما يتضحان في المقام الأول عند اختلاف الأسس المعرفية للمناهج المتعددة ."[1]

فاختلاف النقاد والمناهج النقدية حتمية فكرية راجعة إلى اختلاف مرجعيات الخطاب النقدي، إذ يخضع كل منهج لبنى معرفية وأسس إبستيمولوجية وإيديولوجية بعينها، فلا يكاد ينفصل عن أصله المعرفي ومصدره الإيديولوجي وهدفه الذي يتحدد من طرف هذه الإيديولوجيا ذاتها، ما يدعو إلى التساؤل عن جدوى تطبيق هذه المناهج من قبل النقاد العرب الذين استوردوها دون مراعاة لأصولها الثقافية ومنطلقاتها الفلسفية، إذ بدأ الناقد العربي :"منشغلا بما في معامل ومستودعات مناج النقد الأدبي للآخر.. فهو يستورد من الآخر ماهو جاهز، استيرادا شرعيا أو تهريبا، ويحاول التوليف مع ما يمكن تلمسه من مقتضيات الواقع الفكري والنقدي والأدبي، تتصاغر ذاته أمام الآخر الكلي الجاذبية والتفوق ."[2]

وإذا كانت المناهج النقدية القديمة ــــــــ إن صح لنا هذا المصطلحــــــ قد اتكأت على علم المنطق وعلوم البلاغة واللغويات والكلام، فإن المناهج الحديثة لا تخلو من أرضية معرفية تتجسد في علم من العلوم، فتعتمد نظرياته ومصطلحاته وأدواته، فالمنهج التاريخي قد شهد اعتماده على منجزات عام التاريخ وطرائقه، والمنهج الاجتماعيقام على ما توصل إليه علم الاجتماع من نظريات واتجاهات وتطور وازدهار(الماركسية، الانعكاسية، المادية الجدلية، البنيوية التكوينية ...") وكذاك الشأن مع المنهج النفسي وإسقاط النظريات النفسية(فرويد وعقدة الليبيدو، يونغ واللاشعور الجمعي، آدلر وعقدة النقص، جاك لاكان والبنية اللغوية للاشعور،روبرت جريفز وصراع النزعات اللاشعورية) على الأعمال الأدبية والفنية، كما تأثر المنهج الأسطوري بعلم الأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا، واستفاد من علم المورثات الثقافية، واعتمد المنهج الجمالي الفني على نظريات كانط وغيره في علم الجمال، ولا يخفى علينا تأثر المناهج النقدية الألسنية وتداخلها الكبير مع المذاهب الألسنية في علم اللغة، واستفادت المناهج القرائية من علم التأويل الذي اقترن بالدراسات الدينية .

ولكل مرحلة فكرية منهج تفترضه، فيولد في ضوء رؤية معينة للآداب والفنون وللفكر والثقافة والمجتمع، وكل منهج هو نتيجة تلاحم جوانب متعددة، تصنع واقعا حضاريا معينا، يخلق هذا المنهج ويستدعيه، علما أن :"المناهج النقدية لا تموت ولاتنتهي بالمعنى الحقيقي، وإنما تتجاوز، ولكنها تظل جزءا من تاريخ حركة النقد وتطوره، ويظل للتراكم المعرفي الذي يسهم في التراكم النقدي الدور الأسمى في تطور النظرية النقدية ."[3]

وقد وقع النقد العربي المعاصر في ارتباك فكري وفوضى في المناهج والمصطلحات، لأنه استجلب هذه المناهج من بيئاتها الغربية، ووظفها كنظريات مثالية وجاهزة، في عمليات إسقاط قسري للمنهج على النص، حيث يعتمد أغلب النقاد العرب على المناهج الغربية وأدواتها الإجرائية ومصطلحاتها على اختلاف ترجماتها، فيرغمون النصوص على الانصياع لها ولمقولاتها، بليقولونهذه النصوص ما لم تقله، ويدفع ذلك إلى أن تفقد العملية النقدية غايتها الحقيقية وهي أن تعقد الصلة بين النص وجمهور المتلقين، يقول الدكتور عبد الله إبراهيم :"لم يكن ثمة تمثل خلاق لمعطيات الفكر

[1]ـــ صلاح فضل : مناهج النقد المعاصر، أطلس للنشر، القاهرة، ط7، 2012، ص 13 .

[2]ـــ نبيل سليمان :علامات في توظيف المناهج الحديثة في النقد العربي الحديث، ضمن كتاب دراسات في النقد الحديث، منشورات مهرجان قابس الدولي، تونس، 1987، ص 84 .

[3]ـــ بسام قطوس مناهج النقد المعاصر، ص 13 .

الإنساني، واستثمار خاص لكشوفاته في حقول المعرفة النقدية، إنما الأمر كان في طابعه العام تطبيقا غير كفء لجهاز المفاهيم والإجراءات المنهجية الغربية على موضوع هو الأدب العربي ."[1]

والمتأمل لتاريخانية النقد الحديث يجد أنه قد مر بثلاث مراحل كبرى : مرحلة المناهج السياقية التي أولت أهمية قصوى للمؤلف والسياقات المحيطة به، أما المرحلة الثانية فهي مرحلة المناهج النسقية التي كان فيها النقد منصبا على النص الذي يفرض سلطته على الدارسين والنقاد، وأما الثالثة فهي مرحلة نظريات التلقي التي اعتمدت على سلطة القارئ . فكل مرحلة من هذه المراحل تركز على جانب من العمل الأدبي وإقصاء الجوانب الأخرى، كما أن كل مرحلة تشهد الترويج لإيديولوجيات بعينها، وتركز على بعد فكري يهيمن عليها، ويستقطب اهتمامها ؛فمن الترويج لمضامين بعينها تحت شعار المناهج السياقية المختلفة (التاريخي، الاجتماعي، النفسي)، إلى الاهتمام بالشكل وحده مع المناهج النسقية (الجمالية والألسنية)، إلى

إغفال كل ذلك بالتركيز على المتلقي الذي يمارس عملية إسقاط لثقافته وظروفه على العمل الأدبي .

فكل كرحلة نقدية تمثل موجة فكرية تحمل مدا فلسفيا معينا، يتصاعد مداه إلى أن يبلغ الأوج،ثم يثبت فشله ليخلفه مد آخر، وهكذا يبقى العمل أدبي في جوهره مغيبا يحتاج إلى جهد نقدي يقف على تلك العلاقة الحميمية بين الشكل والمضمون، والمؤلف والمتلقي، وبين النصومختلف المؤثرات الثقافية والفنون المختلفة والصيرورات الحضارية والتطورات العلمية والتكنولوجية .

ولمجابهة هذه المشكلات في توظيف المناهج وإدارة الممارسة النقدية، تجد الذهنية العربية نفسها في حاجة إلى وعي نقدي جديد، يتواكب ومختلف المتغيرات التي تفرض نفسها على النص وناقده معا، من حيث الإفادة من عالم التكنولوجيا والانفتاح الواعي الإيجابي على الثقافة العالمية، دون تجاهل للخصوصيات القومية التي تتجسد في الفكر واللغة والهويةوالجذور التاريخية، إضافة إلى ضرورة الابتعاد عن تنميط التجارب النقدية وتقديس المناهج، حتى يحقق العمل النقدي أصالته وجدوى وجوده ؛ من حيث اكتشاف الوشائج الحية بين النص والحياة، عبر علاقة كشف (بمعناه الصوفي) حقيقية، ليتمكن من فتح النص بدل غلقه، بأن يطرح أسئلته ولا يحدد الإجابات، ويكتشف الأشياء والمسميات، ولايستبقها بأسماء وأحكام جاهزة جامدة.

الواقع النقدي وأزمة المصطلح :

المصطلح لغة مصدره الاصطلاح، وهو مطلق الاتفاق، وقد عرفه الجرجاني بأنه إخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر لمناسبة بينهما، وقيل إنه اتفاق طائفة على وضع اللفظ بإزاء المعنى، وقيل إنه لفظ معين بين قوم معينين، وقيل إنه إخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر،لبيان المقصود .[2]

نستشف من هذا التعريف جملة من النتائج، من بينها أن المصطلح ينحرف عن أصله اللغوي ليؤدي دلالة مختلفة، إلا أنه يبقى وثيق الصلة بهذا الأصل اللغوي، كما أنه يجب أن يكون حصاد اتفاق بين جملة من العلماء ينتمون إلى تخصص علمي معين، فيؤسسون لجهاز مفاهيمي محدد، يساعد في ضبط مقولات ذلك العلم، كي تتوحد الرؤى

---

[1]ــ عبد الله إبراهيم : الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ص59

[2]ــ ينظر : علي جمعة محمد : المصطلح الأصولي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة ط2، 1996، ص32 .

والتصورات العلمية بتوحد المصطلحات ومفاهيمها .فيكون الجهاز المصطلحي هو اللغة الكفيلة بالتعامل والتواصل في مجال علمي معين، نظرا لقصور اللغة العادية عن مواكبة جملة التطورات التي يتوصل إليها كل علم من العلوم .لذلك يعرفه معجم المصطلحات الأدبية بما يلي :" الاصطلاحات هي مجموعة الألفاظ التقنية التي تنتمي إلى فن أو ميدان معرفي، المصطلحات الأدبية هي بالتالي مجمل الكلمات التي تدل على أعراف وممارسات وأساليب ومبادئ أدبية "[1]

إن المصطلحات مقولات حاملة لدلالات محددة، ترتبط ارتباطا كليا بالمجالات المعرفية التي تنضوي في أطرها، ومن ميزاتها أنها تتصف بالدقة في تحديد الدلالة المقصودة، والإحالة المباشرة عليها، والابتعاد عن المفاهيم المفترضة، وإقصاء المدلولات المقاربة .وعليه فإن كل مصطلح يرتبط ارتباطا آليا ومباشرا بالوضع العلمي الذي تمخض عنه من جهة، والمجال المعرفي الذي ينتمي إليه من جهة ثانية، والسياق الثقافي الذي ولد فيه من جهة أخرى، وهو ما يعيق أن تؤدي ترجمة المصطلحات إلى الدلالات عينها التي تحملها في لغتها الأم .

وتعتمد المناهج العلمية على المصطلحات كلغة تحمل أفكارها، وتؤدي فيها ما تؤديه اللغة العادية في الحياة العامة من تواصل واتصال . لذا فإن العلاقة بين المنهج والمصطلح علاقة تفاعلية، إذ يستدعي كل منهج جهازه المصطلحي الخاص الذي يضطلع بنقل نظرياته ومبادئه بالوجه الدقيق، في حين أن ترجمة المصطلح إلى لغة أخرى تفقده بعضا من حقيقته الدلالية، وهو ما حدث بالنسبة إلى المصطلحات النقدية التي ترجمت إلى العربية، إذ استدعى التأثر بالمناهج الغربية ترجمة مصطلحاتها، فشهدنا تعددا كبيرافي الترجمات العربية للمصطلح الواحد، وكان ذلك علامة على اضطراب في الوعي النقدي، ما يسفر عن عدم توضح الرؤية في توظيفها . فإن كان هذا تداعيا من تداعيات عدم استيعاب حقيقة المناهج المستجلبة، فإنه كان من أسباب غموض العلاقة بين النقد والنص وتأزمها، بفعل غموض هذه المصطلحات وما تحيل عليه من دلالات . وتوسعت الهوة جراء ذلك بين المتلقي والنص، فالمتلقي الذي يتوسل بالدراسات النقدية مقاربة النصوص، يعلن عزوفه عن ذلك بعد اصطدامه بجهاز مفاهيمي قاصر وغامض، لا يزيح الحجب عن النص بقدر ما يصنعها .

فأغلب ما يوظفه النقاد العرب من مصطلحات هي مصطلحات مستوردة، جاءت نتيجة التأثر السلبي بنقل النظريات والمناهج النقدية، ومرد هذه الأزمة مثلما يرى الدكتور عبد العزيز حمودة أن المصطلحات المستوردة لا تحمل دلالات معرفية محددة وواضحة داخل الواقعين الحضاري والثقافي اللذين نشأت فيهما، فكيف بإمكانها أن تُستوعب وتوظف في بيئة مغايرة تماما ؟[2]

ونتيجة لما سبق شهد النقد فوضى في المصطلحات وغموضا حادا في الدراسات النقدية(النظرية منها والتطبيقية)، تسبب في ابتعاد الجمهور الأدبي عن النصوص .يقول الدكتور غالي شكري : " فوضى المصطلحات هي التي تسبب غموض النقد، وأقصد بفوضى المصطلح هنا فوضى الأدوات التحليلية والآليات المعرفية، فأصبح النص النقدي أكثر

[1]ــ بول آرون ــ دينيس سان جاك ــ آلان فيالا:معجم المصطلحات الأدبية ترجمة محمد حمود، المؤسسة الجامعية للدراسات، ط1، 2012، ص1059.

[2]ــــ ينظر : عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة، سلسلة عالم المعرفة، ع232، الكويت، 1998، ص33 .

صعوبة من النص الأدبي، فلا يقرأه غير المتخصصين، وهؤلاء ليسوا هم الجمهور الذي يستهدف مخاطبته الأدب والنقد ".[1]

وكان زخم المصطلحات النقدية الذي تشهده الساحة النقديةسيخدم النقد، ويفيده، لو أحسن استخدامه بالطريقة المثلى، بحيث يفيد كل مصطلح وبدقة الدلالة المعرفية التي يحملها، أما وقد تعلق الأمر باستجلاب هذه المصطلحات وتوظيفها حسب هوى كل ناقد، ودونما معايير صارمة في هذا التوظيف، فإن ذلك هو ما شكل جانبا من أبعاد الأزمة التي تعانيها حركة النقد الحديث : "إننا نستعير المصطلح النقدي، ونخرجه من دائرة دلالته داخل القيم المعرفية فيجيء غريبا، ويبقى غريبا، ويذهب غريبا، النتيجة الطبيعية هي فوضى النقد التي خلقها الحداثيون العرب "[2].كما أدى توظيف المصطلحات التراثية وفق منطق انزياحي بالخروج بها من أصولها الدلالية الأولى والانحراف بها نحو دلالات مغايرة، إلى المساهمة في تشكيل هذه الفوضى ؛ يقول الدكتور عبد الله إبراهيم :"شحن المصطلح القديم بدلالة جديدة مغايرة لدلالته الأصل، أو نقل مصطلح ذي دلالة محددة ضمن ثقافة ما إلى ثقافة أخرى، أفضى في الثقافة العربية الحديثة إلى اضطراب كبير، قاد إلى غموض لا يقبل اللبس، في دلالة المصطلح، وسوء في استعماله، في أهم حقول التفكر القائمة الآن، وترتب على ذلك أن تعرضت فعالية الإرسال والتلقي إلى خلل بين ."[3]

وهنا كان الجهاز المصطلحي للنقد المعاصر جهازا عاجزا عن أداء همته في تخليه عن الكثير من المفاهيم التراثية العربية، وتبنيه لمصطلحات النقد الغربي عن طريق الترجمة الآلية الحرفية، وعدم تحديد مدلولاتها بالنسبة لأبنية الفكر والثقافة العربيين، هذا بدوره أفرز إشكالية أخرى تمثلت في التوظيف الشكلي لهذه المصطلحات المترجمة، وإخراجها من مقاصدها، بغياب التفاعل بينها وبين ثقافة الناقد الموظف لها وبنية لغته، إذ ينقلها بمدلولها الحرفي منسياقها المعرفي الذي أنجبها ووظفها، إلى سياق جديد لا تتماشى معه في أغلب الأحيان، ولا يمكن لها أن تتأقلم دلاليا مع أنماط ثقافته، إلا إذا أحسن توظيفها، بالبحث عن بعدها البراغماتي (العملي)، وتكييفها في كينونة وظيفية جديدة، تخدم النقد، وتجنب النقاد المماحكات والمغالطات التي كثيرا ما وقعوا فيها .

أما الحل الذي يجب اتخاذه إزاء هذه الأزمة فهو الوعي بالعلاقة الرحمية بين المصطلحات وبيئاتها الأصلية، وبأنها تحمل مدلولات تخدم المناخ الحضاري الذي ولدت فيه، ومن ثم يتم التعامل معها على هذا الأساس :" غير أن الأمر الذي ينبغي أن نكون على وعي تام به هو أن كل مصطلح خاضع في منطلقاته وتوجهاته المعرفية للمحيط والزمان والمكان الذي أنتجه، أي أنه وليد لحظة تاريخية ما، ومن ثم فهو حامل قطعا لمكونات تلك الحضارة وجوهرها، ولذلك فإن موقفنا رفضا أو قبولا من مصطلح ما إنما هو فعل حضاري ."[4]

ومن بين الحلول المقترحة للخروج من هذه الأزمة اعتماد المجامع العلمية اللغوية التي تعمل على إرساء دلالات محددة للمصطلحات ــــ وبخاصة المترجمة منها، والاتفاق حول معاجم خاصة بها، وإلزام الباحثين بالتعامل بها، حتى تؤول إلى دورها الأول كلغة يتواصل عبرها الفكر النقدي، ليوصل مراميه ودلالاته .

---

[1] ــــ غالي شكري :ا برج بابل : النقد والحداثةالشريدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1994، ص 70 .

[2] ــــ عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة، ص 37 .

[3] ــــ عبد الله إبراهيم :الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ص 131 .

[4] ــــ حسن الأمراني :الحداثة .. ما الحداثة ؟ مجلة المشكاة، وجدة، المغرب، ع 15، 16، جوانــــ جانفي1992، ص 112 .

ولقد آن الأوان لبعث تخصص علمي يعنى بأجهزة المصطلحات لمختلف العلوم والمعارف "علم المصطلح" أو "المصطلحيات"، فيضبط مفاهيم اللغة العلمية لشتى المجالات المعرفية، فيحد من اختلافات العلماء والنقاد، ويوحد الكثير من رؤاهم وتصوراتهم التي شتتها اختلاف المصطلحات.

خاتمة

إن أزمة العقل العربي الحديث ليست أزمة معنى و تفكير ، بقدر ماهي أزمة منهج يؤطر هذا التفكير و يسعى إلى توفير الظروف الملائمة في استيعاب مكونات السياقات الثقافية العالمية وتطويعها لصالح الاشتراطات الحضارية العربية . و لا مراء في القول بأننا لا بد أن نبدأ في رسم خارطة منهجية ومعرفية ، تفعل دور الممارسة النقدية الإيجابية البناءة ، كوسيط تواصلي بين الأجناس المعرفية و النصوص الإبداعية من جهة ، و بين النص و المتلقي ، والنص و السياقات الثقافية من جهة أخرى ، من أجل تصحيح منطق التصورات الحضارية التي شكلها الوعي العربي و راكمها عن نفسه ،و تجاوز الأخطاء المنهجية التي وقع فيها ، بل وقبل هذا كله ضرورة تجاوز الانطلاقات الخاطئة التي ارتضاها لنفسه .

يشكل النقد عصب التفكير في شتى العلوم الإنسانية ، و سببا من أهم أسباب الارتقاء بالفنون و النصوص الإبداعية ، والخروج بها من التجاهل إلى شساعة مساحات التلقي ، وعليه فإن الحاجة إلى إنجاح المنظومة النقدية هو المنطلق الكفيل بمعالجة الكثير من المآزق و الأوضاع الثقافية ،عن طريق إزالة العقبات التي تحجب الرؤية في هذه الممارسة النقدية . إننا نحتاج إلى نقد يحمل في ذاته أسباب نجاحه و استمراره ، نقد يرتهن إلى مناهج مرنة ، تخلق الوشائج بينه و بين النصوص ، وبينه و بين المتلقي ، وبينه و بين السياقات الحضارية و الأنساق المعرفية ، مناهج لا يتوقف النقد فيها ناجزا محدودا ، بل يستمر أعمالا إبداعية ، تضفي بوجودها وعيا خاصا ، وتضيف جوانب معرفية وجمالية ، تسائل وتحاور وتستشكل وتؤول ، بعيدا عن الانحباس فس دوغمائيات مغلقة ونظريات مقدسة مؤبدة . إننا في حاجة إلى رؤية نقدية منفتحة ، تكون : " قراءة توليدية تحويلية ، تتعامل مع النصوص كحقول للدرس و التنقيب ، أو كإشكالات تحتاج إلى الخرق و التجاوز ،بحيث نستثمر مكتسباتها المفهومية بإغنائها و توسيعها ، أو نفكك عقلانيتها بنمطيتها و بداهاتها بالتصنيف ، من أجل إعادة البناء و التركيب ، مما قد يسهم فهم مشكلاتنا الفكرية ، أو في استحداث آفاق جديدة للمعرفة "[1]

إن الوعي بخطورة الممارسة النقدية داخل منظومة التفكير و المسؤوليات المنوطة بها ،هو العامل المحفز على الارتقاء بها ككينونة و فعل وجود ،تتجاوز النص إلى خطاب الكائن الإنساني و التاريخ و الإستشكالات الكلية الكبرى ، و تتجاوز كونها آليات إجرائية منمطة ، إلى كونها وعيا إبستيمولوجيا ، يسعى إلى منهجة اللعقل العربي و تحريره من المسلمات و السياجات الدوغمائية المغلقة ، ومن عبادة المرجعيات المستعارة ، إلى إثراء إمكاناته ، و إخصاب دوره في إدراك العالم و صنع مصيره فيه ، وابتناء مكانة له ضمن سيرورة التاريخ .

[1]ـ علي حرب : هكذا أقرا ما بعد التفكيك . المؤسسة العربية للدراسات و النشر . بيروت . ط1 . 2005 .ص 05 .